عراقيون في سوريا: لا بد من دمشق

غادر مئات الآلاف من العراقيين بلدهم هرباً من نظام صدام حسين وفي أعقاب العدوان الأميركي على العراق قبل نحو عقد. وفي تقليب الاحتمالات، وقع اختيار الكثيرين منهم على سوريا ليعيدوا بناء حياتهم من جديد. هؤلاء يجدون أنفسهم اليوم في مواجهة مع سيناريو ليس غريباً عنهم!

دمشق ــ **أحمد حسان**

لم يكن النزوح العراقي عام 2003 عادياً، فهو، كما وصفته «المفوضية العليا للاجئين»، في أكثر من بيان لها، بـ«أكبر هجرة جماعية قسرية تحصل، منذ الحرب العالمية الثانية». هذا اللجوء كانت له انعكاساته الطبيعية على سوريا، كونها تمثل أفضل وجهة يمكن أن يقصدها اللاجئ العراقي، أولاً، بسبب انخفاض تكاليف المعيشة فيها، مقارنة مع باقي الخيارات المتاحة أمامه، وثانياً، أن العيش في بيئةٍ كالبيئة السورية، المتشابهة إلى حدٍ بعيد مع العراق، لا يشكل فارقاً اجتماعياً وحضارياً شاسعاً بالنسبة الى اللاجئ العراقي. أما السبب الثالث، فيتجلى بالمعاملة الجيدة التي يلقاها المواطنون العرب، كتسهيل إجراءات الإقامة والتعليم، خصوصاً إذا كانت لبلادهم قضية تتعلق بالمقاومة والصراع مع أميركا وحلفائها، كالفلسطينيين والعراقيين.

وهناك خلاف دائم ومستمر بين الحكومتين السورية والعراقية حول تحديد أعداد اللاجئين العراقيين في سوريا. إذ تميل بغداد إلى اعتبار الأرقام التي تقدمها دمشق (3,2 ملايين لاجئ عام 2003) «مبالغاً فيها»، ولا يزال هذا الخلاف حتى اليوم، بعد أن تناقصت أعداد اللاجئين بشكلٍ كبير ومتدرج، منذ عام 2007.

ويعيش أغلب اللاجئين العراقيين في ريف دمشق، أكثر من مركزها. وقد فضّل أصحاب الثروات الضخمة (تقدّر بعثة تقصي الحقائق العراقية نسبتهم بـ 10% عام 2007) والمتوسطة العيش في مناطق جرمانا وضاحية قدسيا وصحنايا. فيما لجأت أغلبية الفقراء إلى منطقة السيدة زينب، حيث يمكن لأكثر من عائلة أن تشترك في دفع إيجار منزل واحد.

العراقيون والأزمة السورية

منذ اندلاع الأزمة السورية واتخاذها منحى عنفياً، عاد ما يقارب السبعين ألف لاجئ عراقي إلى بلادهم. ولكن، وبحسب المفوضية، فضّل أكثر من عشرين ألفاً منهم العودة إلى سوريا مجدداً على رغم اشتداد المعارك فيها. وتبقى مدينة جرمانا أكثر مقاصدهم. ويقول حسن الغراوي، وهو أحد اللاجئين العراقيين في المدينة: «في بداية الأزمة سهلت لنا حكومتنا العودة إلى بلادنا، لكن بقاءنا في سوريا عشر سنوات، فتح لنا حياة جديدة هنا. فدمشق ليست مكاناً تتركه بهذه البساطة».

في الرأي السياسي، وقف اللاجئون العراقيون موقف العارف بخبايا الأمور، فلهم تجربتهم في الأزمات، ويدركون جيداً معنى أن تدمَّر الدولة السورية. يقول عباس الصائغ، وهو مستثمر أحد المحال التجارية في مدينة صحنايا، لـ«الأخبار»: «منذ البداية كنا نتحدث الى أصدقائنا السوريين، عن المخطط الذي يرسمه الأميركي، كنا نتفهم الاحتقان الذي يبديه المعارضون تجاه الاستبداد، لكننا كنا حذّرناهم من الوقوع في فخ التهليل للتدخل الخارجي، فقط لأنهم يرفضون الاستبداد. أكثر من عانى منا، نحن العراقيين، هم من رفضوا الاستبداد وأميركا معاً. أتمنى ألا يكون الحال كذلك في سوريا».

أوس السوداني، الطالب العراقي في جامعة دمشق، يبدو أكثر تفاؤلاً، إذ يرى أن «السوريين بألف خير طالما لم تُفكك دولتهم بعد، ولم يتعرضوا للتدخل الخارجي، كما جرى في العراق. بصراحة، عندما كان السوريون يترقبون الضربة الأميركية، استذكر العراقيون ليلة بغداد الشهيرة بصمت خانق». ويحسد الطالب العشريني السوريين على «الفيتو» الروسي والصيني في مجلس الأمن: «لو توفر لنا ما توفر لهم لبقيت مدينة الرشيد آمنة. فرغم المعارك الشديدة لم تنته دمشق، وما زالت أجزاءٌ كبيرة منها آمنة. كل ما جرى في سوريا ليس سوى نقطة في بحر ما جرى للعراق، بل لعل هذه الأزمة ستقوي سوريا أكثر».

وحرص العراقيون على عدم زجّ أنفسهم في مواجهات مع البيئة السورية، نتيجة اشتداد الخلافات السياسية فيها، فكانت مواقفهم، في أشد الأحوال، ساعية لتقريب وجهات النظر السورية. ومع هذا شكّل الحديث عن جماعات عراقية مسلحة تقاتل إلى جانب النظام السوري، إحدى البوابات الرئيسية لتحميل العراقيين أعباءً إضافية. «نحب مقدساتنا ونحترمها إلى أبعد حدّ، ولهذا فضلنا أن تقوم الدولة السورية بحمايتها، فلسنا مستعدين لأن نقع في فخ نصب لنا منذ بداية الأحداث»، يروي محمد عسكر، أحد اللاجئين في حي السيدة زينب. ويضيف: «بات الناس عموماً ينظرون إلى العراقي الذي يسكن في حي السيدة زينب على أنه حصراً من لواء أبو الفضل العباس، رغم أن العدد الأكبر من المنتمين إلى هذا اللواء، من العراقيين، هم من خارج الحي».

> **ينظر إلى أي عراقي يسكن في حي السيدة زينب على أنه من «لواء أبو الفضل العباس»**

«مدفع جهنم»... جديد المسلحين يستهدف «الكفار» فقط!

«مدفع جهنم»، هو الاسم الجديد الذي أطلق على المدافع التي تستهدف اهالي مدينة حلب، والتي جعل صانعوها من أسطوانات الغاز المفقودة من الأسواق قنابل لإطلاقها منه

حلب ــ **باسل ديوب**

«مدفع جهنم»، هو جديد المأساة السورية الذي يستهدف أحياء حلب بقذائف «مصنوعة» من أسطوانات الغاز التي تضاعف ثمنها عشر مرات إن وجدت.

في العام الأول للأزمة في سوريا، ظهرت تسجيلات مصورة بُثّت على المواقع الالكترونية، تصوّر تجارب على صواريخ محلية الصنع يجريها مسلحون ملثمون. في وقت كانت صفحات التواصل الاجتماعي تعج بالسخرية من عرض التلفزيون الرسمي السوري لـ«منجنيق» حديدي، صودر في البيّاضة في حمص كان المسلحون يستخدمونه لرمي القنابل اليدوية والعبوات المتفجرة لمسافات أبعد باتجاه أحياء يصنّفونها موالية للنظام.

منذ ذلك الوقت، لم تتوقف محاولات المسلحين في ابتكار أسلحة لمواجهة الآلة العسكرية للجيش. فقد انتشر التدريب على صناعة المتفجرات والتفخيخ بشكل كبير. وكان الاعتماد الاول على العائدين من العراق من جماعات الجهاد والفارين من الجيش ممن يملكون معلومات وبعض الخبرة، والمدربين من حركة «حماس».

البداية كانت في إدلب مع حركة «أحرار الشمال» و«أحرار الشام»، وسرعان ما انتشرت قطع من هذا السلاح الذي هو خليط من «سبطانة» مدرعة معطوبة أو مدفع، وعربة جر غالباً ما تكون صُنّعت محلياً في إحدى الورش.

«القذيفة الجهنمية»

تصنع القذيفة في الورش نفسها التي يتم فيها تصنيع المفخخات والعبوات الناسفة. ويتم تفريغ الاسطوانة من الغاز، ثم يُنزع واقي صنبور الأسطوانة، ويلحمّ قميص مجنح لها من الأسفل، بحيث يكون قطره اوسع قليلاً من القطر الخارجي للسبطانة، حتى يتم تثبيت الاسطوانة. ويتم حشو الاسطوانة بمواد شديدة الانفجار ومسامير وقطع معدنية، لتأخذ مساراً أكثر دقة عند الانطلاق. ولا مسار معروفاً لاسطوانة الغاز التي تنطلق من تلك الآلة الجهنمية، وهي أقرب للرمي العشوائي منه إلى أي شيء. فوفق خبير عسكري، يصف القذيفة بأنها «أشبه بالرمي من نقيفة على هدف أرضي بعيد».

يؤدي هذا «الاختراع» إلى سقوط ضحايا بشكل كبير رغم سهولة اختراعه. ويبلغ مدى القذيفة بين 1000 و 1500 متر، وهذا يتطلب الاقتراب من خطوط التماس. ويقول مصدر عسكري إن الجيش دمّر مدافع عدة من هذا النوع، وهنالك عدد آخر تجري متابعته.

> **التكبير على القذيفة قبل إطلاقها يجعلها مباركة ولا تؤذي إلا الشبيحة**

جهنم للكفار

يعتبر المسلحون أن اختراعهم هو نتيجة الحاجة الملحة للسلاح لمواجهة الجيش نتيجة «خذلان المجتمع الدولي وزيف وعوده بتسليح المعارضة وشن حرب لإسقاط النظام، كما حصل في ليبيا».

ويقول عبد الرحمن، وهو موظف تم إيقاف راتبه لتعامله مع المسلحين ثم انتسابه إلى «لواء التوحيد»، ان «صناعة السلاح هي لمواجهة النظام، ودليل على أننا لا نتلقى السلاح الكافي ممن يسمون انفسهم أصدقاء سورية، وهم أعداؤها وأعداء الثورة».

يرفض عبد الرحمن الانتقادات التي توجه الى استخدام «مدفع جهنم»، معتبراً ان «الحرب لها ضريبة ونحن فقدنا وظائفنا وبيوتنا، ومن بقي مع النظام في الأحياء الأخرى عليه أن يتحمل نتائج وقوفه مع النظام الذي يقصفنا بالبراميل المتفجرة».

أما صديقه حسان، فيرى ان «التكبير على القذيفة قبل إطلاقها يجعلها مباركة ولا تؤذي المسلمين بل تصيب الشبيحة وحزب الله وجنود الأسد، وترسلهم إلى جهنم».

الضحايا مدنيون

استخدم مدفع جهنم بكثافة في حلب في الآونة الأخيرة في قصف الأحياء الآمنة التي تحميها وحدات من الجيش. ويؤكد مصدر عسكري أنه «لم يستشهد أي عنصر من وحدات الجيش في حلب نتيجة القصف بهذا الاختراع الشيطاني». ويوضح ان القذائف سقطت في الخلاء أو مبان مهجورة أو بالقرب من مدنيين، ما أدى الى استشهاد ما لا يقل عن خمسة وعشرين شخصاً وإصابة العشرات بينهم نساء وأطفال.

ويقول أبو صبري الذي يقطن في حي سليمان الحلبي ان «جرة غاز متفجرة» سقطت مقابل منزله في الشارع الذي هُجّرت غالبية سكانه وتحوّلت معظم مبانيه الى خراب. وأضاف: «الحمد لله لم يمت أحد. جرح ثلاثة أشخاص، رغم أن الانفجار كان بقوة عشرة أضعاف قذيفة الهاون الكبيرة».